الفصل الثالث

الفُضَيل والقُرآن

obeikandl.com

obeikandl.com

القرآن ربيع قلوب الصالحين، إن نجواهم به، وإن نعيمهم فيه، وإنه وِردُهم مصبحين، وهو وِردُهم ممسين، وإن رسول الله ﷺ يقول ـ فيما رواه عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما:

« مَنْ قرأَ القرآنَ فقد استدرجَ النبوّةَ بين جنبيه، غيرَ أنَّهُ لا يُوحَى إليه، لا ينبغى لصاحب القرآنِ أنْ يجدَ مَعَ مَنْ وجدَ، ولا يجهلَ مَعَ مَنْ جَهِلَ، وفى جوفه كلامُ الله »(١).

وللفضيل مع القرآن صحبة، وله منه هيبة، وإليه محبة، إنه يروى بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ فى شأنه، منها:

روى الفضيل ـ بسنده ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« ما خَيَّبَ الله عبداً قامَ فى جَوْفِ الليلِ فافتتحَ سُورةَ البقرةِ وآلِ عِمْرانَ، ونِعْمَ كَنْزُ المؤمنِ البقرةُ وآلُ عمران ».

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، كان لا ينام حتى يقرأ:

« الم تنزيلُ الكتابِ، وتباركَ الذى بيدِه المُلْكُ »(٢).

وكان الفضيل يصف الذين يقرءون مخلصين لله وجوههم، فيقول:

---

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) أى: سورة السجدة، وسورة الملك.

« قُرَّاءُ الرَّحمنِ أصْحَابُ خُشُوعٍ وذُبولٍ، وقُرَّاءُ الدُّنيا أصْحَابُ عُجْبٍ وتَكَبُّرٍ وازْدِراءٍ للعَامَّة ».

ويقول:

« قُرَّاءُ الرَّحمن أَهْلُ ذُبولٍ وخُشُوعٍ ، وقُرَّاءُ الأُمَراءِ أَهْلُ كِبْرٍ وعُجْبٍ وازْدِراءٍ للنَّاس ».

أما قراءة الفضيل فى نفسه، فقد روى إسحاق بن إبراهيم عنها أنها كانت حزينة، بطيئة، مترسِّلة، كأنه يخاطب إنساناً، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يرددها.

أما شعوره نحو القرآن وعاطفته بالنسبة له ، فإنها تظهر من القصة التالية التى رواها صاحب «صفة الصفوة» فقال:

حدَّث سعد بن زنبور قال: كنا على باب الفضيل فاستأذنا عليه فلم يؤذن لنا.

فقيل لنا: إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن . . قال: وكان معنا رجل مؤذِّن وكان صيِّتاً. فقلنا له: اقرأ ،فقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾(١). ورفع بها صوته، فأشرف علينا الفضيل وقد بكى حتى بلَّ لحيته بالدموع، ومعه خرقة ينشف بها الدموع من عينيه، وأنشأ يقول:

---

(١) سورة التكاثر : ١.

بَلَغْتُ الثَّمَانِيْنَ أَوْ جُزْتُهَا فَمَاذَا أُؤَمِّلُ أَوْ أَنْتَظِرْ
أَتَى لِي ثَمَانُونَ مِنْ مَوْلِدِي وَبَعْدَ الثَّمَانِيْنَ مَا يُنْتَظَرْ
عَلَتْنِي السُّنُونُ فَأَبْلَيْنَنِي .....

قال: ثم خنقته العَبْرة. .وكان معنا علىٌّ بن خشرم فأتمَّه لنا فقال:

عَلَتْنِي السُّنُونُ فَأَبْلَيْنَنِي فَرَقَّتْ عِظَامِي وَكَلَّ البَصَرْ

ويتحدث إبراهيم بن الأشعث قائلاً:

ما رأيت أحدًا كان الله فى صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذَكر الله أو ذُكر عنده، أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من بحضرته.

وكان دائم الحزن شديد الفكرة ، ما رأيت رجلاً يريد الله بعلمه وأخذه وإعطائه ومنعه وبذله وبغضه وحبه وخصاله كلها غيره ـ يعنى الفضيل .

أما نصائحه لأهل القرآن فكثيرة، منها قوله:

« حَامِلُ القُرآنِ حاملُ رايةِ الإسْلاَمِ،لا يَنبغِى له أنْ يَلْغُوَ مَعَ مَنْ يَلغُو، ولا أنْ يَلهوَ مَعَ مَنْ يَلهُو، وَلاَ أنْ يَسْهُوَ مَعَ مَنْ يَسْهُو، ويَنبغِى لحاملِ القُرآنِ أنْ لا يكونَ لَهُ إلى الخَلْقِ حَاجَةٌ، لا إلى الخُلَفَاءِ فَمَنْ دُونَهُمْ ، ويَنبغِى أنْ تكونَ حَوائجُ الخَلْقِ إليه ».

وكان ﷺ يقول:

« مَنْ قَرَأَ القُرآنَ سُئِلَ يومَ القيامة كَمَا تُسألُ الأنبياءُ ـ عَليهِم الصلاةُ والسَّلامُ ـ عَنْ تَبليغِ الرِّسَالةِ فإنَّه وَارِثُهُمْ ».

وكان يقول:

« لا يَنبغِي لحَامِلِ القُرآنِ أنْ يكونَ له حَاجَةٌ عندَ أحَدٍ منَ الأمراءِ والأغنياءِ، إنما يَنْبَغِي أنْ تكونَ حَوَائِجُ الخَلْقِ إليه هُوَ ».

أما من أُعطى فهم القرآن فإنه ـ فيما أعلن الفضيل ـ قد أُعطى علم الأوَّلين والآخرين.

وقد رويت له بعض تفسيرات لعدد قليل من الآيات ، وإننا لنأسف لأنه لم يُرو له الكثير من ذلك، ومن تفسيراته:

قال فى قوله تعالى:

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[1]: « يعنى: أخْلَصه وأصْوَبه.. إنَّ العملَ يجبُ أنْ يكونَ خالِصاً لله، وصَواباً على متابعةِ النبيِّ ﷺ[2] ».

وقال فى ذلك أيضاً :

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[3]:

(١، ٣) سورة هود : ٧، وسورة الملك : ٢.

(٢) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

«أخْلَصه وأصْوَبه، فإنَّه إذا كانَ خَالصاً ولم يكن صَواباً لم يُقبَل، وإذا كان صَواباً ولم يكن خَالصاً لم يُقبَل حتَّى يكونَ خالِصاً، والخالصُ إذا كان لله، والصوابُ إذا كانَ على السُّنَّة».

ويحدِّث داود بن مهران قال: «سمعت فضيلاً يقول في قوله تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾[1].

قال: «أَوْفُوا بما أَمَرْتُكم، أُوفِ لكمْ بما وَعَدْتُكم».

وعن سهيل بن عاصم قال: «سمعت إبراهيم بن الأشعث يقول: سمعت فضيلاً يقول في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[2]:

قال: «لا تَغْفَلوا عَنْ أنفُسكم فإنَّ مَنْ غَفَلَ عَنْ نَفْسه فَقَدْ قَتَلَها».

وقال إبراهيم بن الأشعث: «سمعت فضيلاً يقول ذات ليلة، وهو يقرأ سورة محمد، ويبكي ويردد هذه الآية:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[3].

وجعل يقول:

---

(١) سورة البقرة: ٤٠.

(٢) سورة النساء: ٢٩.

(٣) سورة محمد: ٣١.

«ونبلو أخباركم» .. ويردد: «وتبلو أخبارنا ؟.. إن بَلَوْتَ أخبارنا فَضَحْتَنا وهتكتَ أستارنا، وإنك إن بَلَوْتَ أخبارنا أهلكتنا وعذَّبتنا» . . ويبكى . . » .

وعن الحسن بن على العابد قال: قال الفضيل بن عياض لرجل: « كم أتتْ عليك ؟ » .

قال: ستون سنة.

قال: «فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك توشك أن تبلغ» .

فقال الرجل : يا أبا على، إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال له الفضيل : «تعلم ما تقول ؟» .

قال الرجل : قلت إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الفضيل : «تعلم ما تفسيره ؟» .

قال الرجل: فَسِّره لنا يا أبا على.

قال:

«قولك إنا لله، تقول: أنا لله عبدٌ، وأنا إلى الله راجعٌ.فمن علم أنه عبد الله وأنه إليه راجع، فليعلم بأنه موقوفٌ ، ومن علم بأنه موقوفٌ فليعلم بأنه مسئولٌ ، ومن علم أنه مسئولٌ فَلْيُعِدَّ للسؤال جواباً» .

فقال الرجل : فما الحيلة ؟ . .

قال: «تُحْسِنُ فيما بقى يغفرْ لك ما مضى وما بقى ، فإنك إنْ أسأتَ فيما بقى أُخِذتَ بما مضى وما بقى» .

وعن محمد بن إبراهيم قال: حدثنا أبـو يعلى، حدثنا عبد الصمد قال: سمعت الفضيل يقول:

«إنمـا هُمَا عَالـمان، عَالمُ دُنـيا، وعَالمُ آخـرَة، فعـالمُ الدُّنيا علْـمُهُ مَنْشُورٌ، وعالم الآخرَة علْمُه مَسْتُـورٌ، فاتَّبعوا عَالمَ الآخرَة، واحْذَروا عَالمَ الدُّنيا، لا يَصُدَّكم بسُكْره».. ثم تلا هذه الآية:

﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾[1]..

الآية. تفسير «الأحبار»: العلماء. و«الرهبان»: العُبَّاد.

ثم قال الفضيل:

«إنَّ كثيراً مِنْ علمـائكم زِيُّه أشْبَـهُ بزِيِّ كِسْـرَى وقَيْصَـرَ منه بزِيِّ مـحمـد ﷺ، إنَّ محـمدًا لـم يضعْ لَبِنَةً على لَبِنَة، ولا قَـصَبَةً على قَصبَة، لكنْ رُفِعَ لَهُ علمٌ فسموا إليه».

قال: وسمعت الفضيل يقول:

« العُلَمَاءُ كثيرٌ والحُكَمَاءُ قَليلٌ، وإنَّما يُرَادُ مِنَ العِلْمِ الحِكْمَةُ، فَمَنْ أُوتِيَ الحِكْمَةَ فقدْ أُوتِيَ خَيرًا كَثيرًا».

وقال:

« لَوْ كَانَ مـعَ عُلَمَائِنَا صَـبْرٌ ما غَـدَوا لأبوابِ هَؤلاءِ » .. يعنى: الملوك.

---

(١) سورة التوبة : ٣٤ .

وسمعت رجلاً يقول للفضيل:

ـ العلماء ورثة الأنبياء.

فقال الفضيل: « **العُلَمَاءُ الحُكَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ** ».

وقال رجل للفضيل:

ـ العلماء كثير.

فقال الفضيل: « **الحُكَمَاءُ قَلِيلٌ** ».

***

obeikandl.com